الإنسان صانع الحضارة

الدكتورة نعمان عبد الرزاق السامرائي

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)
مركز البحوث والدراسات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى
1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

الإنسان صانع الحضارة

الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي(*)

المطلوب أن يكون المسلم متبعًا في العبادة، ومبدعًا في الثقافة والحضارة، لكنا عكسنا ذلك فصرنا مبتدعين في العبادة، مقلدين في الحضارة، فلا سلمت لنا العبادة، ولا اكتسبنا حضارة.

الإنسان صانع الحضارة، برقيه ترقى'، وبتأخره تتأخر وتأفل، لكن التحضر عمل شاق طويل، يتطلب توفر إمكانات وشروط مواتية، لذا لم تقم حضارة بقرار، ولم تسقط بقرار، بل بتجمع أسباب كثيرة هنا أو هناك.

وإذا طرحنا سؤالاً عن الهدف أو الأهداف الكبرى للوجود البشري في الحياة، فيمكن أن نحدد هدفين كبيرين:

1- عبادة الله تعالى كما أراد وأمر.

2- عمارة الأرض.

فالله تعالى يكرر في كتابه الكريم: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون:115).

وعن العبادة يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56)، وعن عمارة الأرض يقول: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(*) أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود بالرياض.

(هود:61).

وأساس العبادة السليمة المقبولة، النص الصحيح، وعدم إحداث أي تغيير أو تبديل، ذلك أن الأساس فيها (الحظر) أي المنع، وأضرب مثلاً، فالصلاة فيها تكبير وقراءة قرآن، وركوع وتسبيح، وكل له مكانه الخاص، فإذا صلى مسلم فسبح واقفًا، أو قرأ راكعًا أو ساجدًا، بطلت صلاته.. وهكذا الحج ومثله الزكاة، ذلك أن العبادة غير معللة، ومن ثم فالمطلوب فيها الاتباع: «... **صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[1].. أما المعاملات فمعلّلة، والسياسة الشرعية قائمة على جلب المصلحة ودفع المفسدة.. لذا فالمطلوب أن يكون المسلم متبعًا في العبادة، ومبدعًا في الثقافة والحضارة، لكنا عكسنا ذلك فصرنا مبتدعين في العبادة، مقلدين في الحضارة، فلا سلمت لنا العبادة، ولا اكتسبنا حضارة.

أما عمارة الأرض فتتطلب معرفة آخر المستجدات في العلوم والمعارف، وعلماؤنا يقسمون الفروض إلى عينية وفروض كفاية.

العينية كالعبادات، أما فروض الكفاية فتجب على الأمة، فإذا قام بها بعضهم وإلا أثمت الأمة كلها، فإذا وجد علم أو معرفة أو حرفة أو صناعة، ثم لم يوجد في الأمة من يعرفها، فالأمة كلها آثمة. وقد وجدت أبا حامد الغزالي[2] –وهو فارس من فوارس العلم والثقافة– يتحدث عن العلم وأنواعه، لكنه نشر نظريته في ثلاثة كتب، متى جمعت

(1) أخرجه البخاري، كتاب الأذان برقم 226؛ وفي الأدب المفرد 76/1؛ والدارمي 303/1؛ وابن حبان 541/4؛ وابن خزيمة 190/5؛ والبيهقي في سننه 301/3؛ والدار قطني 272/1.

(2) متكلم وفيلسوف وأصولي وصوفي، ولد سنة 1051م، آمن بأن طرق الصوفية هي الطريق المؤدية إلى المعرفة والسعادة والحق. كان لآرائه أثر كبير في تطور الفكر العربي وفي اللاهوت المسيحي خلال القرون الوسطى أيضاً. أشهر كتبه إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، وله كتاب «المستصفى في أصول الفقه»، وقد ألف في نهاية حياته كتاباً ترجم فيه لنفسه –فيما يعرف اليوم بالمذكرات الشخصية– وأسماه «المنقذ من الضلال» توفي سنة 1111م.

اتضحت نظريته:

1- فهو في كتابه (الإحياء) يقسم العلوم إلى شرعية، وهي ما استفيد من الأنبياء عليهم السلام، وغير شرعية، وهي ما أرشد إليها العقل، كالطب والحساب وأمثالها. والعلوم غير الشرعية هي من فروض الكفاية، فإذا خلا منها بلد سارع إليه الهلاك[1].

2- وفي كتابه (أيها الولد) يتم نظريته قائلاً: .... أما من يقتصر علمه على العلوم الدنيوية دون الشرعية، فعمره يضيع فيما لا ينفع في الآخرة[2].

3- في كتابه (ميزان العمل) يقول: ..... من يقتصر على علوم الدين وحدها، فإنه لا يفهم من الدين إلا قشوره، بل خيالاته وأمثلته، دون لبابه وحقيقته، إذ لا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية، فإن العقلية كالأدوية للصحة، والشرعية كالغذاء .ا.هـ[3].

ومن يتطلع إلى أن يكون له دور في الحضارة، فلا بد أن يكون له حضور متميز، كما ينبغي أن تكون لديه فكرة واضحة محددة تجاه الكون والحياة والخالق. يقول (اشفيتسر) في كتابه القيم (فلسفة الحضارة): «إذا أنتج المفكرون، في عصر من العصور نظرية في الكون ثمينة، فإن هذه الأفكار تتداول بين الناس تداولاً يؤدي إلى ضمان التقدم، وإن عجزوا عن ذلك بدأ الانحلال يدب على نحو أو آخر، فكل نظرية في الكون تجر وراءها نتائجها التاريخية» ا.هـ[4].

والقرآن الكريم يربط بين عمارة الأرض والأخذ بهدي الأنبياء، كما أن تجنب هذا

(1) إحياء علوم الدين، 17/1.
(2) أيها الولد، ص 22.
(3) ميزان الاعتدال ص124، ولي على كلام أبي حامد تحفظ، ففي الإسلام أمور مهمة وأخرى أهم منها، لكن من الصعب القول بأن هناك لباباً وقشوراً.
(4) فلسفة الحضارة، الطبعة الثالثة، ص 69.

الهدي والكفر به، يجلب التعاسة وسقوط الحضارات.

يقول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل:112). ويقول عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم:28).

ويمكن القول: بأن قصص القرآن -في مجموعه- يهدف لبيان: كيف تقدمت الأمم وسادت حين أخذت بهدي السماء، وماذا أصابها من تأخر وفساد حين تجنبت هذا الطريق.

«شيبتني هود وأخواتها»

من المعروف أن أبا بكر ﷺ كان من جيل صاحب الرسالة ﷺ، وقد تطلع يومًا لوجه رسول الله ﷺ ثم قال: أراك شبت يا رسول الله، فرد صاحب الرسالة ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**»[1] ويقصد سورة هود، وأمثالها من السور التي تتحدث عن الأمم والحضارات السابقة.

ومن يقرأ سورة هود يجدها تتحدث عن ست حضارات تقدمت، كل واحدة أصابها مرض قاتل، حتى سقطت وذهبت.

فمن تلاعب بالموازين، إلى عبث بالأمن العام وإخافة للناس، إلى شذوذ جنسي قبيح، وتعاطٍ للزنى علنًا، دون حياء... إلخ.

ثم يسجل القرآن نهاية كل حضارة من هذه الحضارات.. والسؤال: إن بين عصر

(1) أخرجه الترمذي، 402/5؛ وقال حسن غريب؛ والحاكم 374/2؛ وقال: على شرط البخاري؛ وأبو يعلي في مسنده، 102/1؛ وعبد الرزاق في المصنف، 368/3؛ والبزار في مسنده، 169/1؛ والبيهقي في شعب الإيمان، 481/1.

الرسالة وهذه الحضارات ألوف السنين، فلماذا شاب لها رسول الله ﷺ؟؟؟

إن (السنن) لا تتغير ولا تتبدل، كما لا يمكن لأحد تجاوزها والقفز فوقها، وما أصاب تلك الأمم يمكن أن يصيب أمتنا، ومن هنا جاء خوف وفزع صاحب الرسالة ﷺ.

فما أصاب تلك الأمم والحضارات يمكن أن يضر بنا، فتكون حالنا كحالهم، فالله تعالى لا يحابي أحدًا، وعدالته تأبى التمييز، وإن ادعى بعضهم أنه من شعب اختاره الله، وهو يُدَلّله ويعامله معاملة خاصة[1]!!!

ولعل من المفيد هنا ذكر حديث لصاحب الرسالة ﷺ، يرويه عبد الله بن عمر فيقول: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسُ خِصَالٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا بِهَا إِلَّا ابْتُلُوا بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.. وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ.. وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.. وَلَا خَفَرَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.. وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**»[2].

وهذا الحديث من معجزات النبوة، فيوم أن تحدث ﷺ، لم تكن خصلة قد وجدت، أما اليوم فكلها – بحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه– موجوده مشهودة.

أمتنا والشهود الحضاري

(1) للمزيد يمكن مراجعة: تفسير التاريخ للكاتب ص 128، الطبعة الأولى.

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، 133/2؛ والبيهقي في شعب الإيمان، 197/3؛ والحاكم في مستدركه، 582/4.

ختم الله سورة الحج قائلاً: ﴿ ...وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾(الحج:78)، وهذا شرف عظيم لصاحب الرسالة وأمته، بما لم تطمح إليه أمة من قبل ولا من بعد.

يقول فارس هذا الميدان: «فالرسول ﷺ يشهد على هذه الأمة، ويحدد منهجها واتجاهها ويقرر صوابها وخطأها، وهي تشهد على الناس بمثل هذا، فهي القوامة على البشرية بعد نبيها، وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة، ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج، المختار من الله تعالى.. ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية، حتى إذا انحرفت عنه، وتخلت عن تكاليفه، ردها الله عن مكان القيادة، إلى مكان التابع في ذيل القافلة، ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر، الذي اجتباها له الله.

وهذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد، ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله..... بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية، التي اجتباها لها الله، وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض، والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها، ولكن مع حشد القوى والطاقات، والزاد الذي لا ينفد، والذي لا يملكه إلا المؤمنون بالله، فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.

إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدمًا إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض، ولا تكتفي بأن تقودها اللذائذ والمتاع وحدها، كما تقاد الأنعام، إن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية، لكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى، وكذلك يريدها الإسلام، في كنف الوصاية الرشيدة، المستقيمة على منهج

الله تعالى» ا.هـ[1].

إن الشهادة شرف عظيم، وهي عمل كسبي لا تتحقق بالتخلف ولا بالكسل، فالريادة والقيادة في عالم اليوم، تتطلب عقيدة سليمة وثقافة حية وبيئة مناسبة، وتطلع حار للقيام بدور رائد في الحضارة.. إن عالم اليوم يقوده الغرب وحضارته، وهو لن يسلم لأحد حتى تكون لديه قدرات موازيه، وامتياز في جانب حضاري هو شحيح في حضارة الغرب.. وسأستعرض باختصار عوامل التحضر:

العوامل الدافعة للتحضر[2]

إن الذين يشتغلون في تفسير التاريخ، ويدرسون عوامل التحضر ينقسمون إلى:

1- جماعة تعتقد أن التحضر يتطلب جملة عوامل متضافرة، يسند بعضها بعضًا، كي تقوم حضارة وتتقدم.

2- جماعة ترى وجوب توفر عامل أساس واحد، يكون قطب الرحى، وكل ما سواه يعتبر ثانويًا.

لكن هؤلاء لم يتفقوا على عامل واحد، فهناك من آمن بالجنس (العرق) وهناك من ركز على العامل الجغرافي (من الأرض والمناخ)، وهناك من اعتمد العامل الاقتصادي (كالماركسية)، بينما ركز بعضهم على العوامل الاجتماعية، ومن آمن بقوة عامل العقيدة، وعامل المعرفة، ودور البطل أو الشعب، والفتوحات العسكرية وأثرها، وأخيرًا سلامة شبكة العلاقات الاجتماعية.

(1) في ظلال القرآن، 632/5، الطبعة السادسة.

(2) انظر في معركة الحضارة، د. زريق، الطبعة الرابعة، ص 189؛ وفي فلسفة الحضارة، د. الشرقاوي، الطبعة الثالثة، ص153؛ وسقوط الحضارة، كولن ولسون، ص 341، 395؛ وتفسير التاريخ للكاتب، ص 27-39.

وأخيرًا لقد طرح توينبي نظرية أسماها (التحدي والاستجابة)، ملخصها[1]:

أن الإنسان بحاجة إلى تحد حتى يتحرك ويقيم حضارة -فهو إذن سلبي- وهذا التحدي ينبغي أن لا يكون قويًا، فيعجز الإنسان عن التعامل معه وتجاوزه، ويضرب لذلك مثلاً ببلاد الأسكيمو وأهل الصحراء، فيرى أن الإنسان هنا سيكون همه الأول أن يعيش فلا يموت جوعًا أو عطشًا أو بردًا.. وقوة التحدي قضية نسبية، فما يعتبره شعب أو أمة تحديًا قويًا، لا تعتبره أمة أخرى كذلك.. وأضرب مثلاً باليابان، فهي شحيحة الموارد، يسكنها أكثر من (125) مليونًا من البشر، وثلاثة أرباع أرضها جبلي، ومع ذلك فهي في مقدمة الدول المتقدمة الغنية.

وبالمثل فإن العراق يحوي أرضًا خصبة وله موارد نفطية كبيرة، وأنهارًا عدة ونفوس العاصمة طوكيو بقدر نفوس العراق جميعًا، ولكن أين العراق من اليابان!!

وهناك دول في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية تملك من الموارد ما شاء الله، وهي تستجدي المعونات والطعام والدواء.. إذن فصعوبة وسهولة التحدي نسبية.

أما الشرط الثاني، فأن لا يكون التحدي سهلاً فلا يحرك الإنسان، ويضرب لذلك أمثلة بالمناطق الاستوائية، حيث المطر الكثير، والشمس المشرقة، فلا يموت الإنسان جوعًا ولا عطشًا، وهذا الأمر فيه نظر، فالهند الاستوائية أقامت قديمًا حضارة، وهي اليوم تتحرك بقوة نحو ذلك.

كذلك يعاب على النظرية بشكل عام جعلها الإنسان سلبيًا، تحركه العوامل أو تقعد به.. والمفكر مالك بن نبي[2] يذكر أن عوامل التحضر أربعة:

---

(1) مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد شبل، 98/1؛ وتفسير التاريخ للكاتب، ص 94.

(2) مفكر عربي جزائري، ولد في قسنطينة في شرقي الجزائر، وأنهى دراسته الثانوية في تبسة، تخرج مهندساً كهربائياً من جامعة باريس، ثم عاد إلى الجزائر، فالقاهرة. نشر أكثر كتبه بالفرنسية، وترجم معظمها إلى العربية، ومنها: «الظاهرة القرآنية»، و«شروط النهضة الجزائرية»، و«مشكلة الثقافة»، «في مهب المعركة»، ولد عام 1905م وتوفي عام 1973م.

1- الأفكار وخاصة الدينية 2- الإنسان 3- التراب (الإقليم) 4- الزمن[1].

أما (ديورانت) في كتابه الجيد (قصة الحضارة)، فيذكر أربعة عوامل للتحضر، اثنان يعودان للطبيعة (العامل الجغرافي والجيولوجي)، واثنان للإنسان (العامل النفسي والعامل الاقتصادي) [2].

وقبل أن أنتقل إلى شيء آخر أود أن أقول: بأن التحضر مجرد وصف موضوعي وليس قيميًا، قد يكون نعمة أو نقمة على صاحبه.. ذات يوم عندما تقدم الغرب استعمر كافة القارات، وعامل البشر فيها كالبهائم، نهب الثروات فأفقر المستعمرات، ليبني لنفسه المدن والجامعات، حتى قال شيخ الوجودية (سارتر): إن الشعب في الغرب مشارك لحكوماته في النهب والسلب، على حساب الشعوب المستعمرة المغلوبة.. فما هي إذن عوامل التحضر ؟؟؟

عوامل التحضر

أولاً: عامل الثقافة والفكر[3]:

وأود اختصار الموضوع بنقاط:

1- كل شعب وكل أمة لها ثقافة وفكر، وقد لا يكون لديها حضارة، وفي العالم اليوم ملايين في آسيا وأفريقيا لهم ثقافاتهم الخاصة، لكنهم يعيشون خارج الحضارة، وإن استعملوا واستهلكوا بعض منتجات الحضارة.

(1) شروط النهضة، ترجمة: مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة عام 1967م، دار الفكر، ص91 .
(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، 7/1، لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، 1973م.
(3) مدخل إلى الثقافة الإسلامية، الأمير الدكتور سعود بن سلمان آل سعود بالاشتراك مع د. نعمان السامرائي، الطبعة الأولى، 1419هـ، ص 15.

2- الثقافة هي صانعة الولاء، وتمنحه طواعية دون أي ضغط ولا إكراه.

3- تموت الثقافة أو تذبل إذا حصل انفصال بين الوعي والواقع.

4- في الحياة قوانين يصعب تجاوزها: فالاستبداد في الحكم يفضي إلى تخلف العقول، وهذا التخلف يؤدي إلى تخلف التربية، وتخلف التربية يقود إلى نقد التراث (الديني)، وهكذا يظل الدوران في حلقة مفرغة، بالتنقل من المشاكل الثقافية إلى السياسية إلى التاريخية، لكن دون حسم مشكلة من هذه المشاكل.

5- العالم قديمه وحديثه يشهد صراعات ثقافية وغيرها، فإذا وجد تدفق ثقافي أو (قصف إعلامي) وعلى أكثر من جبهة، وعجزت الثقافة المحلية عن المقاومة والاستيعاب فهناك احتمالان:

أ) أن تتفكك الثقافة الأضعف.

ب) أن تعدّل من آلياتها، وتكيف نفسها.

6- كل ثقافة وفكر لا بد له من مرجعية، فالعقل البشري يصعب عليه العمل دون مرجعية تمنحه شيئًا من الأسس يستند إليها، وإلا حصل الانقسام، وتحولت الأمة إلى أمم.

7- هل يمكن حل كافة الثقافات، ودمجها في ثقافة واحدة ؟؟ لم يسجل التاريخ أن أمة تخلت عن ثقافتها كليًا واندمجت في ثقافة غيرها إلا إذا غيرت دينها وكافة معتقداتها، وغيرت لغتها وآدابها.

8- مهمة الإنسان المثقف العمل الجاد لحل مشاكل أمته، فإذا تحول إلى مجرد (سمسار) لثقافة أخرى، فإنه يخون بلده، كما يخون أمانة العلم والثقافة.

إن بعض المثقفين في العالم الثالث اتخذ من العلم والثقافة سلمًا لتحسين وضعه، والحيازة على أكبر قدر من المغانم، متحالفًا مع رجال السلطة، مانحًا ظهره لشعبه

وأمته.

9- سلوك الإنسان يحدث منبثقًا عن فكر وثقافة، والأمة تنشئ حضارة كثمرة لعقيدة وثقافة، وكلما كانت العقيدة والفكرة والثقافة حية، كان التحضر أسرع وأعجل، فإذا تحولت الأفكار إلى مجرد أحلام، وصارت الثقافة مجرد كلام أو عرف، فإن العد التنازلي للحضارة يبدأ ويستمر، حتى تسقط الحضارة، أو تتحول إلى جسد لا روح فيه.

10- وهنا استحضر كلمات (فرانك أنلو) الرائعة حيث يقول: «راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات، راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً، راقب أفعالك فإنها تتحول إلى عادات، راقب عاداتك فإنها تصبح طباعًا، راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك» ا.هـ[1].

وإذا كان هذا يصدق على الفرد، فهو يصدق على الأمة، فالتاريخ لم يسجل نهضة ولا تحضرًا جاء مصادفة دون تخطيط وتصميم وعمل جاد، يشارك فيه الحاكم والمحكوم على حد سواء.

11- أسارع للقول: إن المقصود بالفكر والثقافة تكوين رؤية شاملة للوجود والحياة، والهدف من الوجود، لأن التحضر سلوك جماعي، يتجمع في وحدة ثقافية جامعة، تدفع بالأفراد نحو محصلة مشتركة في العمران المعنوي والمادي، وكل هذا يتطلب نوعًا من التجانس، يمكن أن أسميه (الإجماع الثقافي) وهو ما توفره العقيدة الواحدة، أما الإجماع السياسي، فتوفره قيادة (كارزمية) ذات مواصفات عالية جيدة، وأهداف مشتركة.

إن الأفكار هي (وقود) التحضر، وبدونها يصعب ذلك.

(1) القيادة والتغيير، فرانك أنلو، ترجمة: بشير الجابري، ص28.

12- هذا الفكر وتلك الثقافة قد تكون دينية، منحدرة من مصدر غيبي، إما حقيقي أو وهمي أسطوري، أو أفكار بشرية، وهنا نلاحظ أن الدين هو الأقوى والأدوم، لذا نجد الحضارات الكبرى قائمة في أساسها على دين، أو متطورة عنه، فإذا لم تكن كذلك، فربما سقطت الحضارة، حتى الدولة، دون عدوان خارجي (كما سقط الاتحاد السوفيتي قريبًا، وفي مدة قصيرة نسبيًا. وقبل ذلك سقطت الحضارة الرومانية).

13- يرى توينبي[1] أن انحلال الحضارات يرافقه ويزامنه عادة فساد كبير يدب في أرواح الناس، وتغير جذري في سلوكهم، وفي مشاعرهم، وكل حياتهم، حيث تختفي الصفات الجيدة والقوى المبدعة التي كانت تطفح بها نفوسهم في دور النمو والتحضر، ليحل مكانها فساد روحي، وفوضوية تشمل السلوك والأخلاق والعادات، وانحطاط يسود الآداب والفنون، وقد تفرض الأقلية المسيطرة بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة، أو عقيدة تختارها أو حتى دينًا تتبناه، لكنها تفشل في ذلك.. إن الفكرة والعقيدة عامل أساس في صياغة الكيان الحضاري، فتوحيد الله تعالى يطبع الحضارة الإسلامية بكل جوانبها، والنشاط الروحي يطبع الحضارة الهندية، بل حضارة جنوب آسيا بشكل عام.

14- وأخيرًا يصعب علي أن أتجاوز ما كتبه الرئيس البوسني (علي عزت بيكوفيتش) في كتابه القيم (الإسلام بين الشرق والغرب)[2] فقد كتب: الثقافة تمثل تأثير الدين على الإنسان، أما الحضارة فتمثل تأثير الذكاء على الطبيعة.. الثقافة صنع مستمر للذات، والحضارة تغيير مستمر للذات.. والحضارة تغيير مستمر للعالم.. الثقافة استمرار للتقدم الإنساني، والحضارة استمرار للتقدم التقني (المادي).

(1) تفسير التاريخ للكاتب، ص106.

(2) الإسلام بين الشرق والغرب، ص 94.

الثقافة تستهدف التقليل من حاجات الإنسان، فتتوسع آفاق حريته، أما الحضارة فتعتمد على المادة وتفرضها على الإنسان. الحضارة تمثل قوة على الطبيعة، والثقافة تمثل القوة الذاتية.. الدين والفكر والآداب هي مكونات الثقافة، أما العلم والتكنولوجيا، والمدن والدول، فكلها تنتمي للحضارة.

الحضارة ليست خيرًا بنفسها ولا شرًا، لذا فالمتحضر يمكن أن يكون مستعمرًا مستعبِدًا، مشعلاً للحروب، محطمًا للآخرين، سارقًا لأقوات الفقراء، مانعًا لهم من التقدم.

ثانيًا: الدافع الحضاري:

قد تتوفر للإنسان إمكانيات كبيرة لكنه لا يتحرك، ولا يستعمل هذه الإمكانات، وقد تكون الإمكانات والفرص شحيحة قليلة، ولكن قوة في نفس الإنسان تدفعه للبحث والعمل والتشبث، وقل مثل هذا في الشعوب والأمم. حتى بالغ بعضهم فعد التحضر من نصيب شعوب بعينها، وذهب آخرون أن شعوبًا أخرى غير مستعدة للتحضر وإن وافتها الفرص، لكن التاريخ يشهد بغير ذلك، ولا يصدق حدس العنصريين، وما يطرحون.

ما يصدق على الفرد يصدق هنا على الشعب والأمة، واليابان خير مثال، فالدافع للتحضر تجاوز شح البلاد وقلة الخيرات، لصعود سلم التحضر، محمولاً على صاروخ، بينما هناك شعوب أخرى وأمم لديها الكثير الكثير من الفرص والإمكانات، وهي تراوح مكانها، إن لم تتراجع إلى مؤخرة القافلة.

إن الأفكار حين تحل في النفوس حلولاً إيمانيًا -ولو لطور ما- يكون حلولها الدافع النفسي للتحضر، والتغلب على المصاعب والأزمات.

إن الأفكار قد تسيطر على نفوس أصحابها فتدفع بالشعب أو الأمة نحو العمل الموحد، بشيء من إنكار الذات، وهنا أتذكر ما كرره مالك بن نبي، يرحمه الله[1] من أن الحضارة تبدأ روحية نشطة، يعمل أصحابها بجد وإخلاص ونكران ذات، فتحقق إنجازات كبيرة، ثم يعقبها مرحلة عقلانية، تفلسف المرحلة الأولى، وفي المرحلة الثالثة والأخيرة تثور الغرائز، فتتفسخ الحضارة وتسقط، وهذا ينطبق انطباقًا عاليًا على الحضارة الإسلامية، كذلك يلاحظ لدى رواد الحضارة الغربية، مقارنة بأبنائها اليوم، وطمعهم وتطلعهم للكسب الشخصي، ولو على حساب الشعب والأمة.. إن رواد الحضارة أعطوا الكثير، واشتغلوا بجد ونكران ذات، ولكن الأجيال المتأخرة لا تحمل هذا الهم، بل همها الأول أن تكسب وتترف، ولا يهم إن كان ذلك على حساب الآخرين في الداخل والخارج، وفضائح الفساد تتوالى، وفي كل دولة، ومن الكبار قبل الصغار.. لقد ذهب الرواد، وذهبت معهم تلك الهمة العالية، والتفاني والإخلاص والعمل مع نكران الذات.

وكل حضارة تعرف الفارق الكبير بين الرواد المؤسسين، وذلك النفر البائس الفاسد المتكاسل، الذي يشهد عادة سقوط حضارته، وفي الأندلس عبرة وأي عبرة!!!

دخلنا أسبانيا وكل ما نملكه اثنا عشر ألف مجاهد، وسقطت الأندلس، فهاجر أكثر من ثلاثة ملايين، كانوا مهزومين في أعماق أنفسهم، قبل أن ينهزموا في معركة.

واليوم يتحدى عشرون مليونًا من اليهود أمتنا، وقد ناف عددها على المليار، فتتوالى علينا الهزائم كزخات المطر الغزير.

ثالثاً: البيئة الطبيعية:

الحضارة تقوم على أرض هي بيئتها الحاضنة لها، وهذه الأرض قد تكون سخية أو شحيحة، فالصحراء غير السهول، والبلاد التي تكثر فيها الأنهار والخيرات غير البلاد

(1) تفسير التاريخ، ص38.

التي يضربها التصحر، فلا نبات ولا ماء ولا خيرات.

وكذلك المناخ له على الإنسان أثر كبير، وإن راح الإنسان يعمل للتقليل من أهميته، بفضل الصناعة وما تنتجه، وقد تقدم ما قاله توينبي في نظرية (التحدي والاستجابة)، فالحضارات القديمة قامت بأحواض الأنهار، وفي السهول الخصبة، وقد اشترط توينبي لتحضر الإنسان وجود تحد، لا يكون صعبًا ولا سهلاً.

ولكن الإنسان هو صانع الحضارة، فإذا جد واجتهد، فقد يتغلب على الكثير من المصاعب.. ففي بعض البلاد جرى تحلية مياه البحر، واستخراج المياه الجوفية، والزراعة في البيوت المحمية، وخلق صناعة بتوفير رأس مال، وكل ذلك لم يكن متيسرًا قبل عقود.

إن مكننة الزراعة، ونشر المكافحة، والسياسة الواسعة المستعملة في تدجين الحيوانات، وتسميد الأراضي، كل ذلك أدى إلى فتح عظيم في الزراعة، ومثل ذلك وأكبر منه في الصناعة، وفي كل ذلك جرى التقليل من أثر البيئة، ولكن لكل شيء ثمن.

وأختم ما تقدم بقول (ديورانت)[1]: إن العوامل الجغرافية، على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقًا، إلا أنها تستطيع أن تبتسم في وجهها، وتهيئ سبيل ازدهارها.

إن الأرض لم تضق بسكانها، ولكن النفوس الشحيحة (الكنزة) هي التي تضيق، وأراني أكرر مع الشاعر:

كلما أنبت الزمان قناة ركب الناس في القناة سنانًا

إن الحاصل اليوم عجيب غريب، فالأغنياء ونسبتهم في العالم عشرة بالمائة، يسيطرون من خيرات العالم على تسعين بالمائة، وفوق ذلك يسرقون وينهبون ويبتزون الفقراء، فيزداد الأغنياء غنى، في حين يزداد الفقراء فقرًا. إن الفقراء بحاجة إلى محراث

(1) قصة الحضارة، 4/1.

وحاصـــدة وجرار، لكن القوي الغني يبيع عليهم دبابة وصـواريخ لا يحتـاجونها، أو أدوات تجميل لشعب جائع جاهل مريض.

وختامًا:

في عالم اليوم سباق بين الأمم، سباق ثقافي وحضاري وتجاري اقتصادي وسياسي، والذي يتطلع إلى دور حضاري عليه أن يعد لذلك عدة، فلا بد من تقدم علمي، بحيث يعرف علوم العصر، ولا بد من توفير الأمن الغذائي لشعبه وأمته، ولا بد من احترام الإنسان والكف عن الاعتداء على حقوقه وكرامته، ولا بد أن يكون للأمة كلمة في قضاياها الكبيرة، فلم يعد من المستساغ أن يكون الحاكم هو كل شيء، وأن الأفراد مجرد أحجار يحركها كما يشاء، ومتى يشاء، وكيفما يشاء!!!

إن حضارة لا تحترم الإنسان، ولا تسعى لحفظ كرامته، ليست جديرة بالبقاء والاحترام.. لقد كانت القوة حارسة للشرعية، لكنها -بكل أسف- صارت صانعة للشرعية، ومخترعة لها، وهذا إن صح في الغابة، وبين الحيوانات، فلن يصح بين البشر وفي الحضارات.

إن العدل والرحمة هو تحتاجه الإنسانية اليوم، ولكن الموجود الظلم الكاسح، والتفاوت الكبير، واستغلال القوي لقوته، كي يقهر أخاه الضعيف الفقير، والواجب أن يأخذ بيده، وأن يكف الظالمين عن ظلمهم، وأن لا يفرق بين البشر، فكلهم لآدم، ومن التراب وإليه يعودون، وأختم البحث بقول الحق﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ (النحل:90-91).